

المنظور الحداثي للفكر اللغوي القديم عند العرب

La perspective moderniste de l'ancienne pensée linguistique des Arabes

د. دقي جلول *

جامعة المسيلة - الجزائر

djelloul.dekki@univ-msila.dz

المخلص:	معلومات المقال
تهدف هذه الورقة البحثية الى رصد بعض الآراء التي وردت عند اعلام الفكر اللغوي العربي القديم، من خلال طرح مقارنة لما جاء في بعض الدراسات اللسانية الحديثة ، ومقارنتها بما تضمنته المؤلفات اللغوية العربية القديمة . وما تشير إليه مؤلفات اللسانيات الحديثة.	تاريخ الارسال: 2021/04/24 تاريخ القبول: 2021/05/21
فلاشك أن الكثير من المقولات اللسانية التي جاء بها رواد الدرس اللساني الحديث ، قد سبق للفكر اللغوي العربي أن توصل إليها، فكادت النتائج التي أثبتها عبد القاهر الجرجاني ، وابن جني ، تتطابق مع كثير من المقولات التي جاء بها بعض رواد البنيوية كما هو الحال مع "فرديناند دي سوسير" و"جون كوهن" وهو ما سنحاول التطرق إليه في جانب من هذه المقاربة.	✓ الكلمات المفتاحية: ✓ المنظور الحداثي، ✓ لسانيات حديثة ، ✓ بنيوية، ✓ مقاربة

Abstract :	Article info
<p><i>This research paper aims to monitor some of the views received by the distinguished figures of ancient Arab linguistic thought, by proposing an approach to what was mentioned in some modern linguistic studies, and comparing it with what was included in the ancient Arabic linguistic literature, and what modern linguistics literature indicates.</i></p> <p><i>It flashes you that many of the linguistic statements that the pioneers of the modern linguistic lesson came up with had previously been reached by the Arab linguistic thought, so the results proved by Abdel-Qaher Al-Jarjani and Ibn Jinni almost coincide with many of the statements made by some of the pioneers of structuralism, as is the case with F. de Saussure, and John Cohen, which we will try to address in part of this approach.</i></p>	<p>Received 24/04/2021</p> <p>Accepted 21/05/2021</p>
	<p>Keywords:</p> <ul style="list-style-type: none"> ✓ modernist ✓ perspective, modern ✓ linguistics, ✓ structuralism, ✓ approach.

مقدمة:

يرى كثير من المهتمين بالدرس اللغوي العربي ، أن هناك عدد لا يستهان به من المصطلحات والمفاهيم اللسانية المتواترة في الدرس اللغوي الحديث ، تستمد مرجعيتها المعرفية من بعض ما جاء في التراث العربي ، على الرغم من أن بعض من هذه النظريات والمصطلحات لم تكن معروفة بالمعنى المتعارف عليه عند رواد الدرس اللغوي عامة والألسني خاصة ، لكنها كانت موجودة على الأقل من خلال الإسهامات التي خلفها الزواد العرب في أبحاثهم.

إن ما يميز هذه البحوث التي خلفها أسلافنا الأوائل هو ذلك التشابه في بعض عناصرها ، بما تضمنته اللسانيات الحديثة والدليل على ذلك وجود عدد لا يستهان به من أعلام الدرس

اللغوي العربي القديم ، تحدثوا في مدوناتهم على كثير من الحقائق اللغوية الجديرة بالاكشاف. وهو ما حدا ببعض الدارسين إلا أن يربطوا مساهمات اللغويين العرب قديما، بما يقوم به رواد البنيوية اليوم، فالدراسات التي توصل إليها كل من ابن جني في كتابيه: الخصائص" و "سرخناعة الإعراب"، وعبد القاهر الجرجاني في "دلائل الإعجاز" و "الكتاب" لسبويه ، تعدّ نموذجا هاما في التأسيس لكثير من المفاهيم ، التي قامت عليها البنيوية الغربية.

فإذا تحدثنا عن نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني، فقد اعتبرها بعض المهتمين بهذا المجال بمثابة اسم حديث لأطروحة لغوية قديمة، فقد أبدع صاحبها في تحليلها وحبك خيوطها في "دلائل الإعجاز" بداية من القرن الخامس الهجري، لكنها بقيت في طي النسيان لأكثر من ثمانية قرون، حتى يعاد بلورتها من جديد بشكل أو آخر - إن صح التعبير- على مسرح الأحداث عبر سلسلة المحاضرات التي ألقاها عالم اللغة السويسري فرديناند دي سوسير (1857-1913 Ferdinand de Saussure) على طلبته وهو الذي ينظر إليه مؤسسا لعلم linguistics اللغويات أو اللسانيات الحديثة في المرة الأولى ثم على يد تشومسكي (Avrame noame chomsky 1928) صاحب التوليدية التحويلية في اللسانيات تحت مسمى "النظرية التوليدية" أو النحو التوليدي في المرة الثانية، الشيء الذي فتح المجال واسعا لجهود الباحثين التي انصبّت حول إجراء مقاربات بين ما طرحه بعض رواد الدرس اللغوي العربي ، القديم على شاكلة سبويه ، وابن جني، وعبد القاهر الجرجاني من أفكار في هذا المجال، وما جاء بعض من رواد البنيوية الحديثة ، كما هو الحال عند دي سوسير وتشومسكي وجون ليون . وعليه سنحاول التطرق إليه في هذه الورقة البحثية اجراء مقارنة بين النظريات اللسانية الحديثة، وما أنجزه رواد الدرس اللغوي العربي القديم من خلال عرض لبعض من الأفكار التي جاء بها رواد الدرس اللساني الحديث ، ومقاربتها بما جاء في الدرس اللغوي القديم ، ومن ثمّ محاولة النظر إلى هذا المنجز نظرة تأصيلية ، تبين الأصول اللغوية العربية

القديمة لهذه الأفكار ،والنظريات ما أمكننا إلى ذلك سببياً .مستنديين إلى حقائق تاريخية مدعمة بالنصوص ، أمدتنا بها التركة اللغوية التي تمثل عصارة الجهود الفكرية، التي وضعها العلماء العرب القدماء بين أيدينا.

كما نحاول أن نبين كيف أن العقل العربي لم يستثمر هذا الرصيد اللغوي الكبير، الذي تركه عبد القاهر وأسلافه، في محاولة إيجاد نظرية لغوية عربية قديمة ،تمكننا من قراءة نصوصنا الإبداعية، وهذا ما وقف عليه كثير من المهتمين بهذه المواضيع مستدلين بما ذكره عبد العزيز حمودة في هذا السياق ،فهو يعتقد أن العقل العربي يعيش ثقافة الشرخ ،بين جذوره الثقافية العربية و الثقافات الغربية في وقتنا الراهن، ولهذا ينبغي الوقوف مليا على هذه الثقافة العربية ،ومحاولة استجلائها ومعرفة الجانب المشرق فيها ،بعيدا عن إخضاعها لمناهج غربية قد تكون تعسفية أكثر منها موضوعية تحليلية⁽¹⁾.

2. النظرية الجرجانية والدرس اللغوي الحديث: لاشك أن التطور المذهل الذي عرفه البحث اللساني عند الغرب، يعود إلى بحثهم الدائم عن قوانين اللغة وآليات عملها ، وهو ما جعل اللسانيات تشكل ضرباً جديداً من الدراسات اللغوية ،لا تقتصر على لغة دون غيرها، فالخطاب اللساني وآلياته المنهجية ، بات يشكل سمة البحث المعاصر، وخصوصية النظر العلمي الحديث، في حل إشكالية المعرفة وانعكاساتها على الدرس اللغوي وهذا ما نفتقده اليوم بعكس الرواد العرب الأوائل.

إن اللسانيات التي عُدت هبة العالم الغربي ومعلماً من معالم الحداثة منذ أن أوقد سوسير مشعلها ، لم تكن منجزاً مُنبَتَ الجذور عن الماضي ، لأنَّ النشاط اللغوي الذي يجعل الظاهرة اللغوية موضوعاً له كان معروفاً في سياق التحول التاريخي للنشاط الفكري الإنساني عبر الأزمنة المختلفة. فتراث الأمم السابقة غني بالدراسات والتحليلات للظاهرة اللغوية .

فإذا حللنا نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني مثلا يمكن أن نستخلص منها الكثير من المفاهيم البنيوية التي تحدث بها دي سوسير ، لكن بريق هذه التسمية غطى على نظرية

النظم عند الجرجاني ، ولذلك لابد من الوقوف على نماذج كثيرة ومتعددة في هذا المجال وغيره من المجالات الأخرى لغوية أو علمية حتى نعرف مدلولها. فالنظم عند عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز" يهتم فيها بالألفاظ المفردة من ناحية ، ثم الألفاظ بعد اندماجها في التركيب والتأليف من ناحية أخرى⁽²⁾ ، فهذه هذه الدراسة كانت صلب موضوع الدراسات البنيوية الحديثة. يرى عبد القاهر أن النظم " هو تعليق الكلم بعضه ببعض....والبلادة لا ترجع إلى فصاحة وبلادة اللفظ، وإنما إلى النظم و منهج الصياغة " ⁽³⁾ . ومعنى هذا أن الكلمة لا قيمة لها في ذاتها ، بل في علاقتها في تركيب لغوي ما ، وهو بذلك لا يحكم على اللفظة مستقلة، بل ينتظرها لحين الدخول في سياق لغوي ما ، وهذا السياق هو الذي يحدث تناسق الدلالة ، ويبرز فيه المعنى على الوجه الذي يتقبله العقل و يرتضيه. وهو ما تنادي به البنيوية اليوم عندما تربط بين المعطى الداخلي للألفاظ ، و الحمولة الخارجية التي تحملها ، فلكل دال مدلول ، بمعنى أن الكلمة لا تفهم في معزل عن السياق الذي سيقت فيه ، فأى كلمة تفهم حسب السياق الدلالي ، وليس حسب السياق المعجمي ، فالكلمة عند الجرجاني لا يمكن الحكم عليها بالجودة أو الرداءة ، وهي معزولة أو منفردة ، و أن لكل كلمة استخداما حسنا وآخر سيئا⁽⁴⁾ . إن المتفحص لما جاءت به محاضرات (دروس في علم اللغة العام) يدرك من الوهلة الأولى أن هذه المحاضرات ، لم تصل إلى مرحلة التنظير و استخلاص النظرية، لكن مع توالي الدراسات و تعميق النظر فيها من طرف تلاميذه أصبحت هناك نظريات في اللغة، خرجت من عباءة نظرية دي سوسير تطورت فيما بعد وأسست علما قائما بذاته سمي بعلم اللغة. وهذه اللغة التي تحدث عنها دسوسير هي نفسها التي حدثنا عنها عبد القاهر في (دلائل الإعجاز) وهو ما تجلى في قوله "اللغة نظام من العلامات ، ولا تعد الأصوات إلا عندما تعبر عن الأفكار أو تنقلها و إلا فهي مجرد أصوات"⁽⁵⁾ بمعنى أن اللغة نظام من العلامات و العلامة تتكون من شكل سماه (الدال) ومعنى فكري سماه (المدلول)، ولا يمكن الفصل بين

الدىال و المذلول، إن الفصل ببنهما يكون من أجل الدراسة فقط أما من حيث الواقع فهما متحدان.

هذه هي نفسها نظرية النظم عند الجرجانى إن الكلمة لا تفهم بعيدة عن سياقها إنها منظومة متكاملة مترابطة فالكلمة في جملة ما لها دلالات متعددة في ذهن المستمع فلا يمكن الرجوع لفهمها إلى القاموس و إنما ينبغي فهمها حسب السياق الذى جاءت فيه أي حسب موقعها في الجملة " فلا اعتداد بمعاني الكلمات المفردة، إن لم تنتظم في سياق تركيبى." (6) وما يثير الانتباه حقا أن فريقا من علماء العربية كان قد أثار هذه المسألة، وتوصل إلى ما توصل إليه سوسير في موضوع العلاقة بين الصورة الذهنية للفظ، والشئ الذى الدال عليه في الخارج، حيث تساءلوا: "هل الألفاظ موضوعة بإزاء الصور الذهنية- أي الصورة التي تصورها الواضع في ذهنه عند إرادة الوضع- أو بإزاء الماهيات الخارجية (7) ؟

والحقيقة أن عبد القاهر الجرجانى اهتدى إلى البنيوية بمفهومها المعاصر، قبل أن يهتدى إليها أي عالم ونظرية النظم عنده تشهد له بعبقرية لغوية منقطعة النظير ولكن تقاعس اللغويين واهتمامهم بالصنعة أدى إلى ضياع كل هذه الجهود التي قام بها عبد القاهر الجرجانى، وبالتالي ضاعت معها إمكانية إنتاج نظرية لغوية عربية (8). وحتى نبقى دائما في نفس الفكرة، يجدر بنا المقام هنا الإشارة لشخصية بلاغية أخرى كان لها قصب السبق في إثراء الدرس اللغوى العربى القديم، ممثلة في فخر الدين الرازى وبعض من أتباعه، من خلال الأفكار التي جاء بها.

فقد أشار إلى أن الألفاظ موضوعة إزاء (الصورة الذهنية) وليست بإزاء الماهيات (الأشياء) الخارجية. واستدل على ذلك من خلال مقولة أن اللفظ، يتغير بحسب تغير الصورة في الذهن. وأن اللفظ دائر مع المعاني الذهنية دون الخارجية، فدل ذلك على أن الوضع للمعنى الذهني لا الخارجى (9).

إلا أن بعضاً من علماء العربية والمتكلمين رفضوا هذا التمييز بين دلالة الشيء وصورته الذهنية، والشيء في الخارج وقالوا: "إن اللفظ موضوع بإزاء المعنى من حيث هو، مع قطع النظر عن كونه ذهنياً أو خارجياً، فإن حصول المعنى في الخارج والذهن من الأوصاف الزائدة على المعنى، واللفظ وضع للمعنى من غير تقييده بوصف زائد. ثم إن الموضوع له قد يوجد في الذهن فقط كالعلم ونحوه"⁽¹⁰⁾. وفي سبيل وضع منهج صارم يصلح لدراسة أي لغة، يرى سوسير ضرورة عزل الكلام عن اللغة.

صحيح أن هذا الأمر يثير بعض الشكوك، لكن لو طرحنا السؤال بصيغة أخرى. نجد ثمة فرق بين اللغة، والكلام. ما الكلام؟ أليس هو لغة؟ بلى! الكلام لغة، ولا كلام بغير لغة. وهذا ما شدد عليه سوسير نفسه. إذن الأمر في غاية البساطة عند هذا الأخير.

من المعروف عن دسوسير دائماً ما كان يحاول الإجابة عن العناصر التي تشكل هيكل اللغة، وبنيتها وتهيأها، لأداء وظيفتها. وأما عن مضمون اللغة، فهذا ليس مهماً في تعقيد نظرية كونية لدراسة اللغة. بمعنى أنه ينظر إلى الكلام بوصفه نشاط فردي متغير بتغيير المواقف والأفراد، أما اللغة كنظام كلي فهي تتمتع بالثبات النسبي. ولتقريب الصورة نقول أن العلاقة أشبه بعلاقة القماش بالملابس. فالكلام حسب سوسير، أداة اللغة ومنتوجها. ولكن تاريخياً الكلام له الأسبقية على اللغة، وهو الذي يدفع بحركة نمو اللغة وتطورها⁽¹¹⁾ ومثلما فرق دي سوسير بين اللغة والكلام، الأمر ذاته قام به علماء العربية كذلك، من خلال تمييزهم بين مفردات اللغة والتراكيب (الجمل).

فالتراكيب والجمل، أي انشاء الكلام، يرجع، في نظرهم إلى المتكلم. ودلالة الكلام حسب فخر الدين الرازي عقلية لا وضعية. يقول الزركشي في بيان ذلك: "لا خلاف أن المفردات موضوعة واختلفوا في المركبات فقليل ليست موضوعة. وما ذاك إلا لأن الأمر فيها موكل للمتكلم. واستدلوا على هذا الرأي بقولهم لو كان الكلام دالاً بالوضع وجب ذلك فيه ولم يكن

لنا أن نتكلم بكلام لم نسبق إليه ، كما لم نستعمل من المفردات إلا ما سبق استعماله . وفي ذلك عدم برهان على أن الكلام ليس دالا بالوضع " (12).

وعطفا على ما سبق قال آخر: واضع اللغة لم يضع الجُمْل كما وضع المفردات، بل ترك الجُمْل إلى اختيار المتكلم. يبين ذلك أن حال الجمل لو كانت حال المفردات لكان استعمال الجمل وفهم معانيها متوقفا على نقلها عن العرب كما كانت المفردات. كذلك لوجب على أهل اللغة أن يتبعوا الجمل ويودعوها كتهم كما فعلوا ذلك بالمفردات" (13).

هذا، وقد استغلت بعض التيارات لا سيما في الأدب والنقد، مثل البنيوية، والتفكيكية، نظريات دي سوسير المشار إليها وبخاصة فصله بين الكلام واللغة . وتميزه بين العلامة اللغوية والشئ في الخارج ، وذلك لأغراض بحثية ومنهجية بحتة، وذهبت بها مذاهب أبعد، وصرفتها عن وجهتها وعن المراد منها. ولذلك انتهت البنيوية إلى عزل النص عن سياقاته الخارجية ومضمون رسالته، بينما فصلت التفكيكية بين وجبي العلامة اللغوية. أي بين الدال والمدلول، بين اللفظ ومعناه، وبذلك جردت اللغة من وظيفتها التواصلية والمعرفية.

3. سيبويه والدراسات اللغوية الحديثة:

نال سيبويه (ت 180 هـ)، قدرا لا يستهان به من علماء الغرب ، وأخذ حقه ومكانته في التراث اللغوي الإنساني، والدليل أن كثير المنصفين الذين يعترفون بفضل سيبويه وآرائه في تطور الدرس اللساني العربي وغيره، فقد صرَّح تشومسكي نفسه بأنه درس العربية في المستوى الأول في جامعة بنسلفانيا ، على أيدي مستشرقين معروفين هما (جورجيو دي لافيدا) (وفرانز روزنتال)، ونوه تشومسكي في معرض ردّه على استفسارٍ وُجّه إليه في سنة 1989م بأنّ تأثيرات النحو العربي كبيرة على نظريته، وأنّه قرأ كتاب سيبويه كمرجعٍ له (14).

صحيحٌ أنّ سيبويه لم يُنظّم تفكيره في نظريات، وكان تفكيره عبارة عن آراء متفرقة، قد لا يجمعها جامع في أحيان كثيرة.. وصحيحٌ أنّ الغربيين المُحدثين تفوّقوا في تنظيم الفكر اللغوي

في نظريات معينة. ولكن ذلك لم يمنع التشابه والتأثر، بل الاتفاق بين آراء سيبويه، والدرس اللساني الحديث، كما هو حال بالمدرسة التوليدية التحويلية.

فهذا نهاد موسى يصل بعد التحري، والبحث، والفحص في نهاية كتابه: (نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر النحوي الحديث) إلى وجود الكثير من مظاهر الاتفاق بين النحو العربي والنظرية التوليدية.

وهذا ما صرَّح في مقدمة هذا الكتاب بأنَّ " كثيرًا من الأنظار التي وجدها في كتب المُحدثين من الغربيين، ولا بَسَّها في مُحاضراتهم ومُقابساتهم، يُوافق عند عناصر كثيرة منه ما قرأ عند النحويين العرب مُصرِّحين به حيناً، وصادرين عنه كثيرًا من الأحيان"⁽¹⁵⁾.

إنَّ النَّحو العربي من منظور نهاد موسى يتشابه مع كثير من المدارس اللسانية الحديثة، وليس المدرسة التوليدية فحسب.

وحتى يدعم فكرته أكثر يُورد رأي الباحث الأسترالي المعاصر مايكل كارتر في كتاب سيبويه قائلاً: " ويرى كارتر، في مُنتهى النَّظر، أنَّ كتاب سيبويه يُقدِّم نموذجًا من التَّحليل البنيوي لم يعرفه الغرب حتى في القرن العشرين، ويُقدِّر أن لو وُلِدَ سيبويه في عصرنا هذا لتبوءَ منزلةً وسطاً بين دي سوسير و بلومفيلد"⁽¹⁶⁾. ثم يعرض أوجه الاتفاق بين النحو العربي والنظرية التحويلية في المفاهيم الأساسية لها. فهو يعتقد أنَّ النحو العربي يتقاطع في كثير من المفاهيم والتحليلات، مع بعض المدارس اللسانية المعاصرة الأخرى كالمدرسة الوظيفية، وعلم اللغة الاجتماعي، والدلالات المعجمية، وغيرها. ويتجاوز الموسيقى القول بتشابه النحو العربي مع النظرية اللسانية التوليدية، إلى النظر في إمكان أخذ تشومسكي عن النحو العربي. يقول : مازن الوعر: " إنَّه لا غرابة أن نرى عالماً لسانياً أمريكياً مُعاصراً هو نعوم تشومسكي، يقف وقفةً دهشةً، وعجبٍ من التُّراث العربي اللُّغوي (النحوي والدلالي)، عندما قرأ وعلَّق على عملٍ لسانيٍّ كنتُ قد تقدَّمت به كرسالةٍ للدكتوراه، ففي رسالة بعثها إليَّ في 26 نيسان 1982م قال فيها: " إنَّه من الواضح أنَّ هذه الدراسة هي دراسةٌ جيِّدةٌ ورائعةٌ ومهمةٌ."⁽¹⁷⁾

فما جاء من أفكار عند سيبويه ورواد الدرس اللغوي القدي ماهي إلا بذور نمّأها التحويليون الجدد، وعرسوها ورعوها، من أجل وصولها إلى ما وصلت إليه من العالمية والشهرة والذيعوع.

4. ملامح الفكر اللساني في تراث ابن جني: يتفق الكثير من الدارسين أن ما أنجزه أسلافنا الأول من بحوث لغوية قد هيا السبل لبلورة الصوتيات الحديثة التي صاغها العلماء الأوروبيون وأبرزهم فرديناند دي سوسير ولعل أقرب مثال يتبادر الى الأذهان حول هذا الموضوع هو تلك الدراسات التي جاء بها ابن جني أحد أبرز علماء فقه اللغة العربية الافذاذ في القرن الرابع الهجري (ت 392 هـ) في كتابية "الخصائص" و"سر صناعة الإعراب".

ففي تعريفه للغة يقول ابن جني: "حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"⁽¹⁸⁾. لم يقل أن اللغة ألفاظ أو كلمات ولكنه قال "أصوات speech sounds"⁽¹⁹⁾ وأصوات أشمل وأعم وهو المصطلح المستخدم في علم اللغة الحديث، وعلم الاصوات phonetics من أحدث علوم اللغة، والفونيم phoneme هو أصغر وحدة صوتية، فالحرف فونيم. أما قوله: "يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"⁽²⁰⁾ فهو تقرير للوظيفة الاجتماعية والمعرفية والتواصلية للغة. ووظيفة اللغة هذه، لا خلاف عليها، وهي من البداهة بحيث أنها ليست في حاجة إلى التدليل.

وثنم فخر الدين الرازي هذه الوظيفة والحاجة إليها، بقوله: "الانسان الواحد، وحده، لا يستقل بجميع حاجاته، بل لا بد من التعاون، ولا تعاون إلا بالتعارف، ولا تعارف إلا بأسباب، كحركات، أو إشارات، أو نقوش أو ألفاظ توضع بإزاء المقاصد. وأيسرها وأفيدها وأعمها الألفاظ"⁽²¹⁾. ولا يعدو دي سوسير في تعريفه اللغة أبعد مما ذهب إليه ابن جني ورفاقه. إذ يقول A language is a نظام من العلامات أو الاشارات للتعبير عن الافكار"⁽²²⁾. ويضيف: " اللغة مؤسسة اجتماعية"⁽²³⁾. "ولكن ما أصل اللغة؟ هل هي موضوعة بمعنى أن الناس تواضعوا وتعارفوا عليها تدريجيا شيئا فشيئا حتى صارت نظاما متكاملًا في التواصل بين الافراد

ناقش فقهاء اللغة العربية، وعلم الكلام الإسلامي، هذه القضية تحت عنوان : اللغة هل هي اصطلاح أم توقيف؟ يعني هل اللغة وقفا منزلا من الله أم هي مصطلحات لفظية نشأت في هذه الدنيا واكتسبها الانسان اكتسابا؟ وقد انقسموا فيما بينهم فمن قائل هي توقيف ووحى وإلهام، ومن قائل هي اصطلاح وتواضع وتواطؤ. ومنهم من جمع بين الرأيين، فقال هي توقيف وهي اصطلاح. أما ابن جني فيقول في كتابه الخصائص: " أكثر أهل النظر على أن اللغة إنما تواضع واصطلاح، لا وحى ولا توقيف" ⁽²⁴⁾. ويرد على من احتجوا من أهل التوقيف، بالآية القرآنية : "وعلم آدم الاسماء كلها" بقوله، وهذا لا يتناول موضع الخلاف. ويجوز أن يكون تأويله : أقدر آدم على أن واضعه عليها. " ⁽²⁵⁾ وإذا سلمنا بان اللغة موضوعة، فالسؤال الذي يطرح نفسه فكيف اهتدى الإنسان إلى ألفاظ اللغة؟ كيف نشأت اللغة أول ما نشأت؟ هنالك نظريات عدة عن أصل اللغة. أول هذه النظريات نظرية المحاكاة، محاكاة أصوات الطبيعة والاشياء. وتسمى هذه النظرية عند علماء اللغة المعاصرين اسما طريفا ، The bow-wow theory وكان ابن جني ورفاقه قد اهدتوا إلى هذه النظرية في نشأه اللغة، يقول: " وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو الاصوات المسموعات، كدوي الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي، ونحو ذلك، ثم تولدت اللغات عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجه صالح، ومذهب متقبل ⁽²⁶⁾ والقول بان اللغة تواضع وليس وحيا أو توقيفا، يترتب عليه القول بأن معاني الألفاظ أيضا مكتسبة وليست أزلية أي أن العلاقة بين اللفظ ومعناه ،علاقة عرفية يملها العرف وليست منزلة من السماء.

خذ مثلا لفظ شجرة في اللغة العربية، هل دلالته على الشيء المسى شجرة دلالة طبيعية ذاتية، أم أن العرف جعل الناس يطلقون على هذا الشيء اسم شجرة ،بحيث كان من الممكن أن يحل أي لفظ آخر ،محلّه للإشارة إلى الشيء المسى شجرة؟

وقد ناقش علماء العربية هذه المسألة تحت عنوان: مناسبة الألفاظ للمعاني. وخلصوا إلى أن العلاقة بين اللفظ ومعناه علاقة وضعية وليست طبيعة جوهرية ازلية. توصل دي سوسير إلى ذات النتيجة التي اعتمد علماء اللغة العربية والمتمثلة في العلاقة الوضعية التي تربط بين اللفظ ومعناه مع استبدالها بمصطلح آخر أكثر جاذبية (إن لم نقل أكثر إثارة) من خلال وصفه هذه العلاقة بالاعتباطية أو الجزافية أي "linguistic sign is arbitrary" مستدلاً بنفس جحة علماء العربية "لو كانت دلالة اللفظ على معناه طبيعية لما اختلفت اللغات ولتحدث الناس لغة واحدة". ومعنى اعتباطية أنه لا يوجد منطق يلزم أن توضع مثلاً كلمة شجرة في العربية على ما سواها من ألفاظ في الدلالة على الشجرة. يقول: "لا توجد علاقة ذاتية جوهرية مثلاً بين فكرة الأخت في الفرنسية، والحروف المكونة لكلمة "سور" نفس الفكرة يمكن أن يمثل أو يرمز إليها بحروف أخرى"⁽²⁷⁾. فهو يعتقد أن فكرة اعتباطية العلامة اللغوية تعتبر من البديهيات بحيث لا أحد يمكن أن يجادل فيها. ويدلل على هذه البديهية بحقيقة الاختلاف بين اللغات، وبتغير دلالة الألفاظ في اللغة الواحدة، من عهد إلى عهد.

5. الثقافة العربية و اللسانيات الحديثة :

ساهمت البحوث العربية في بناء ما يسمى علم اللسانيات الحديثة بطريقة أو أخرى كما مر بنا سابقاً وهذا ما أشار إليه بعض اللسانيين العرب ومنهم مازن الواعر الذي علق بقوله : "اللسانيات الحديثة استفادت من التراث اللغوي العربي أكثر من غيره، رغم أنّ أغلب اللسانيين الغربيين لا يعرفون هذه الحقيقة أو لا يعترفون بها... ضانين أنّ التراث اللغوي العربي في معظمه انعكاس، وإعادة صياغة التراث اللغوي الإغريقي"⁽²⁸⁾.

لا شك أن النهضة التي تشهدها علوم اللغة، والبلاغة والنقد، في عصرنا الحالي، وإن كانت ملكاً مشاعاً بين الإنسانية قاطبة، لا يمكن أن ننكر أنّها إلى حدّ هذه اللحظة التاريخية التي نعيشها نتاج علمي غربي بالدرجة الأولى، وما زالت هذه العلوم تتخذ من الغرب مركزاً،

شأنها في ذلك شأن علوم عديدة، إن لم يكن شأن سائر العلوم، وإتّها لتشهد بين الحين والحين بفعل التراكم المعرفي والثورات التقنيّة، والفتوح العلميّة تطويرا وإعادة صياغة، وتنشأ منها فروع جديدة حتّى صار الحديث يدور مجازا على شجرة اللسانيات.

وإنّ ما هو راسخ في فكرنا ومن واجبنا بيانه وإذاعته على أسس علميّة مضبوطة أنّ آخر حلقة استفاد منها الفكر الغربي المعاصر هي التراث العربي الإسلامي⁽²⁹⁾.

وأنّ فضيلة هذا التراث إنّما تنبع من أنّ الحضارة العربيّة الإسلاميّة، كانت أعلى في الوتيرة الفكرية وأنفذ في الرؤية المستقبلية من غيرها من الثقافات والحضارات التي سبقها أو رافقتها، رغم كلّ النواقص والعوائق التي انتابتها؛ حتى أنّ بعض الدارسين يرى أنّ اللسانيات الحديثة، استفادت من التراث اللغوي العربي، أكثر من غيره، رغم أنّ أغلب اللسانيين الغربيين لا يعرفون هذه الحقيقة، أو لا يعترفون بها "ظانين أنّ التراث اللغوي العربي في معظمه انعكاس وإعادة صياغة للتراث اللغوي الإغريقي"⁽³⁰⁾، كما يقول مازن الوعر في كتابه "دراسات لسانيّة تطبيقية". لذلك، فإنّ هذه العجالة المتواضعة تحاول أن تأخذ على عاتقها التحسيس بأهميّة الدراسة العلميّة المضبوطة في تعديل وجهة النظر السائدة، وإبراز أهميّة إعادة صياغة النظرية اللغوية العربيّة وفق مناهج البحث الحديثة.

يعتقد كثير من رواد البحث اللغوي الحديث أنّ اللغويين العرب سبقوا العالم اللغوي الأميركي نعوم تشومسكي بقرون في النظر إلى النحو على أنه العلة التي تحكم ترابط الأشياء وتماسكها تماسكا محكم التنظيم.

والدليل أنّ تشومسكي وتلاميذه وأعوانه لم يُكُونُوا نظريتهم اللغوية بين عشية وضحاها، من خلال كتابٍ واحدٍ بل كتبوا سلسلة من الكتب، والدراسات والأبحاث، وبالاستعانة بمنجزات العلم الحديث، وخلاصة التجارب اللغوية والمناهج السابقة، وإنّ سيبويه وبالرغم من تواضع الإمكانيات، ووسائل البحث العلمي في عصره، أتى بما جعل تشومسكي وغيره من العلماء المُنصفين يُقدِّرون سيبويه وأفكاره بل ويعجبون بصنيعه.

فالخليل بن أحمد الفراهيدي قال "إن العرب نطقت على سجيتهما وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علتها"⁽³¹⁾ والفراهيدي سبق بعشرة قرون اللسانيات الإدراكية في محاولاتها الإجابة على السؤال الكبير: كيف يعمل الدماغ البشري باللغة العربية إدراكا وتوليدا في المقابل، وفي موازنة بين اللسانيات وعلوم اللغة العربية، قال عضو مجمع اللغة العربية أحمد قدور إن اللسانيات علم عالمي، هدفه اللغات البشرية واستخلاص قوانين عامة، لا ترتبط بلسان دون آخر.

يؤكد جل الدارسين المهتمين بهذا الموضوع أن ما أنجزه العرب في مجال الدراسات الصوتية، بدءا من تقسيم للأصوات، وتصنيفها ووصفها وسماتها بحسب خصائصها، كما ورد في بعض المصنفات العربية القديمة، قد هيا السبل لبلورة الصوتيات الحديثة التي صاغها العلماء الأوروبيون وأبرزهم فرديناند دي سوسير ليخلصوا في الأخير أن العلاقة بين اللفظ ومعناه علاقة وضعية، وليست طبيعة جوهرية أزلية وهذا ما أكده دي سوسير في أبحاثه، بمعنى النتيجة نفسها التي توصل إليها علماء العربية، من أن العلاقة بين اللفظ ومعناه علاقة وضعية لكنه يستعمل لفظا آخر أكثر جذرية (إن لم نقل أكثر إثارة) حين يصف هذه العلاقة بالاعتباطية أو الجرافية يقول: (linguistic sign is arbitrary) ويستدل على ذلك بذات الحجة التي استدلت بها علماء العربية، وهي أنه لو كانت دلالة اللفظ على معناه طبيعية، لما اختلفت اللغات ولتحدث الناس لغة واحدة.

ومعنى اعتباطية أنه لا يوجد منطق يلزم أن توضع مثلا: كلمة شجرة في العربية على ما سواها من ألفاظ في الدلالة على الشجرة. يقول: "لا توجد علاقة ذاتية جوهرية مثلا بين فكرة الأخت في الفرنسية، والحروف المكونة لكلمة "سور" نفس الفكرة يمكن أن يمثل أو يرمز إليها بحروف أخرى للغات"⁽³²⁾

يرى سوسير أن فكرة اعتبارية العلامة اللغوية، هي من البداهة بحيث لا أحد يمكن أن يجادل فيها. ويدلل على هذه البديهية بحقيقة الاختلاف بين اللغات وبتغير دلالة الالفاظ في اللغة الواحدة من عهد إلى عهد.

يمكن القول أن البحث اللساني المعاصر برهن على قابلية كبيرة لوصف وتحليل مجالات معرفية مختلفة تتصل بالتراث اللغوي العربي. "العقل العربي مارس كل ألوان الاجتهاد وأنواعه، وبعض هذه الاجتهادات كانت حريّة بالتّطوير والإثراء، وليس التّجاهل والاحتقار" ولذلك " فكلُّ مُعطيات علم اللغة كما طوّره سوسير وتشومسكي لم تكن فتحًا جديدًا، وكان يجب ألا تكون كذلك، بالنسبة للمثقف العربي لو أنّه في حماسه للتّحديث وانهاره بمُنجزات العقل الغربي لم يتجاهل تراثه العربي" (33) فكثيرٌ من أفكار سيبويه وغيره من العلماء العرب أخذت وطوّرت من قبل علماء الغرب، سواءً عن طرق الترجمة أو الاطلاع المباشر أو غير ذلك. ولا يمكننا الزّعم أنّ كل ما ذكره سيبويه موجودٌ لدى المدرسة التوليدية التحويلية ولكن أردنا أن نقف على أوجه التّشابه، فما عند سيبويه بذور نمّأها التحويليون الجدد، وغرسوها ورعوها، وأفنوا أعمارهم وأفكارهم من أجل وصولها إلى ما وصلت إليه من العالمية والشهرة والذيع.

بل هم بنيويون بالمعنى نفسه الذي يصنّف به أكثر الدرس اللساني في القرن العشرين، ومن ضمنه النحو التوليدي التحويلي بأنّه بنيوي - لقد كان النحويون العرب مُهتَمين بالتّحليل البنيوي الذي يصل الأشكال بعضها ببعض، وذلك ما يؤدي إلى تفسيرها. ومن اللافت للنظر أن تكون بعض تحليلاتهم مُجرّدة ومصوغة بمصطلحات تُشبه ما يستعمله اللسانيون اليوم.

6. خاتمة:

تأسيساً على الذي مضى بيانه نخلص من كل ما تقدم:

أولاً: كان لرواد الدرس اللغوي العربي القديم قصب السبق في عديد القضايا المتعلقة بالمباحث اللغوية المعاصرة، سواء من ناحية المناهج، أو القضايا اللغوية، أو الجهود النحوية..

ثانيا : اعترف رواد الدراسات اللسانية الحديثة بالجهود اللغوية العربية القديمة التي قدمها أسلافنا، حتى إن بعض الغربيين المنصفين قد ألفوا كتباً تتحدث عن جهود القدامى العرب. عن طريق وسائل مختلفة ، سواء أكانت مباشرة (الاطلاع على التراث اللغوي العربي باللغة العربية) أم غير مباشرة (عن طريق ترجمة أعمال النحاة واللغويين والبلاغيين العرب إلى لغات أجنبية كثيرة).

ثالثا : يعد عبد القاهر الجرجاني من أهم أعلام رواد الدرس اللغوي القديم ، الذين استطاعوا أن يبلوروا نظرية متكاملة تضاهي أحدث النظريات اللغوية في النصف الثاني من القرن العشرين، وإن دل هذا إنما يدل على تأثر بعض من رواد اللسانيات الحديثة بالتراث اللغوي العربي.

الهوامش :

- (1)- حمودة ، عبد العزيز مرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية، 2001 ، سلسلة عالم المعرفة، ع. 272، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت. ص 77
- (2)- عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، 1992م، ط 3 ، مطبعة المدني بالقاهرة ودارالمدني بجدة، ص 158
- (3)- عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، 1992م، ط 3 ، مطبعة المدني بالقاهرة ودارالمدني بجدة، ص 158
- (4)- ينظر:المصدر نفسه ، ص 189 .
- (5)- عبد الرحمن بودراع، النص القرآني ومنهج السياق ع: 111، (المحرّم 1427هـ/فبراير 2006م (مجلة الترتيل، مكة المكرمة.ص 58
- (6)- عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز، ص 92 .
- (7)- ينظر: الزناد الأزهر ، نظريات لسانية عرفانية، 2010 م ، ط 1، دار محمد علي، تونس.ص 66
- (8)- ينظر: عبد العزيز حمودة مرايا المقعرة: نحو نظرية نقدية عربية، ص 82.

- (9)- ينظر: عبد المنعم ، علم اللغة بين ابن جنيّ وفرديناند دي سوسير، موقع سودانيل، مقال ،نشر أفريل 2012 ، الموقع الإلكتروني <https://www.sudaress.com/sudanile/38859>
- (10)-فخر الدين الرازي ،نهاية الإيجاز في دار الإعجاز ، تحقيق: بكرى الشيخ أمين، 1985، دار العلم للملايين، ط1، بيروت . ج1/45
- (11)- ينظر: عبد المنعم عجب الفيا ،مقال ،علم اللغة بين ابن جنيّ وفرديناند دي سوسير، موقع سودانيل .
- (12)- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، 1985 م ، ط1 ، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ،، ج8/259
- (13)- المصدر نفسه ، ج8/262
- (14)- ينظر: جيلاني ، إبراهيم بدوي ، فن الترجمة وعلوم العربية، وظواهر النقد الحديث وجذورها في التراث، 1994م، ط1 ،دار النصر، المملكة العربية السعودية. ص 166
- (15)-نهاد موسى ، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج التطور اللغوي الحديث ، 1980م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، كلية الآداب، الجامعة الأردنية.ص78
- (16)- المرجع نفسه ، ص 89 .
- (17)-عبدالله أحمد جاد الكريم ، مقال شهادات الغربيين حول سيوبه وتأثير النحو العربي في اللسانيات ، نشر جانفي 2016 ، موقع شبكة الألوكة ، https://www.alukah.net/literature_language/0/96959/
- (18)-ابن جني، الخصائص ، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية . 2006 م ، ط3، القاهرة، مصر ج1/77.
- (19)- ينظر: عبدالله أحمد جاد الكريم ، مقال، شهادات الغربيين حول سيوبه وتأثير النحو العربي .الموقع نفسه
- (20)- المرجع نفسه، الموقع نفسه.
- (21)- فخر الدين الرازي،نهاية الإيجاز في دارالإعجاز ، ص 38.
- (22)-فرديناند دي سوسير ، محاضرات في الألسنية العامة ، تر: يوسف غازي ومجيد النصر1986م، ط1 ، المؤسسة الجزائرية للطباعة،الجزائر، 17.
- (23)-فرديناند دي سوسير. محاضرات في الألسنية العامة ، ص52 .
- (24)- ابن جني، الخصائص ، ج1/ص99 .
- (25)- المصدر نفسه ، ج/ص99 .
- (26)- المصدر نفسه، ج1/ص104.
- (27)- المصدر نفسه ، ج1/ص68 .
- (28)- ينظر: مازن الوعر، صلة التراث اللغوي العربي باللسانيات، مجلّة المجمع الجزائري للغة ، ع24 ..

- (29)- المرجع نفسه ، ع24
- (30)- المرجع نفسه، ع24
- (31)- ينظر : منيرة القنوني، نشأة النحو العربي (دراسة ابستمولوجية للمنوال والتناسق النظري) ، 2013م، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، الناشر. ص192 .
- (32)- منيرة القنوني، نشأة النحو العربي (دراسة ابستمولوجية للمنوال والتناسق النظري) ، ص28 .
- (33)- ينظر : عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة، ص247.
- قائمة المصادر والمراجع:
- 01- جيلاني ، إبراهيم بدوي ، فن الترجمة وعلوم العربية، وظواهر النقد الحديث وجذورها في التراث، 1994م، ط1، دارالنصر، المملكة العربية السعودية.
- 02- ابن جني، أبو الفتح، الخصائص ، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية ، 2006 م ، ط3، القاهرة، مصر
- 03- زناد الأزهر، نظريات لسانية عرفانية، 2010 م ، ط1، دار محمد علي ، تونس .
- 04- حمودة ، عبد العزيز مرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية، 2001 . سلسلة عالم المعرفة، ع. 272، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت .
- 05- زركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، 1985م ، ط1 ، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ،
- 06 - عبد الرحمن بودراع، النص القرآني والنص القرآني ومنهج السياق ع: 111، (المحرّم 1427هـ/فبراير 2006م) (مجلة الترتيل، مكة المكرمة).
- 07- عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز، قرأه وعلّق عليه محمود محمد شاكر، 1992م، ط3 ، مطبعة المدني بالقاهرة ودارالمدني بجدة.
- 08- عبد المنعم ، علم اللغة بين ابن جنيّ وفردناند دي سوسير، موقع سودانيل، مقال ،نشر أبريل 2012 ، الموقع الإلكتروني <http://www.sudaress.com/sudanile/38859>
- 09- عبدالله أحمد جاد الكريم ، مقال شهادات الغربيين حول سيبويه وتأثير النحو العربي في اللسانيات ، نشر جانفي 2016 موقع شبكة الألوكة ، / https://www.alukah.net/literature_language/0/96959/
- 10- فخر الدين الرّازي ، نهاية الإيجاز في دار الإعجاز ، تحقيق :بكري الشيخ أمين، 1985، دار العلم للملايين، ط1، بيروت .

- 11- فردينان دي سوسير ، محاضرات في الألسنية العامة ، تر: يوسف غازي ومجيد النصر 1986م، ط 1، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر
- 12- الأزهر الزناد ، نظريات لسانية عرفانية ، ط1، 2010 م، دار محمد علي ، تونس.
- 13- مازن الوعر، صلة التراث اللغوي العربي باللّسانيات ،ع24، 2009م، مجلّة المجمع الجَزائري للّغة ASJPh <https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/410>
- 14- منيرة القنوني، نشأة النحو العربي (دراسة ابستمولوجية للمنوال والتناسق النظري) ، 2013م، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، الناشر .
- 15- نهاد موسى ، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج التطور اللغوي الحديث ، 1980م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، كلية الآداب، الجامعة الأردنيّة.